اطفئي الضوء انه يرهق اعصابي ، ويتعب عيني .

قالت ذلك ـ وهي تتحاشى النظر اليه ـ بصوت خفيض ، فيه رقة وفيه عذوبة رغم لهجته الآمرة .

ودون اي اعتراض ـ شأنه معها دائما ـ وضع الكتاب الذي كان يقرأه جانبا ، ومد يدا معروقة طويلة الاصابع ، قد انتشر عليها شعر اسود ، وادار زر الكهرباء فعم غرفة النوم الانيقة ظلام حالك ، وسادها سكون ثقيل .

وظل هو مستويا على سريره كما كان متجها صوبها . وظلت هي ممدودة على سريرها المقابل لسريره ، مشبكة يديها على صدرها ، متجهة بناظريها نحو السقف .

لكم تمنى هو في تلك الليلة الباردة ذات العواصف الهوجاء ان يحتوي جسمها اللدن الصغير بين ذراعيه ، فينعم بدفء انفاسها ، وطيب عبقها . ولكنها كانت قد أفهمته وهي تخلع ملابسها ، وترتدي غلالة النوم : انها تعبة جدا هذا المساء يرهقها النعاس ، ومنذ اكثر من ساعة وهي تتمنى ان ينصرف عنهم الزوار الذين اطالوا السهرة اكثر مما ينبغي لترتمي في سريرها ، وتستسلم الى النوم الذي ألح عليها كما لم يلح ابدا .

قال في نفسه :

يالهذه الصغيرة الماكرة كم تجيد اختلاق الاعذار ، وكم تتقن التمثيل !

اتراها تكرهني ، وتضيق بي ، حتى تتهرب مني على هذا النحو ؟!.. متى ألح عليها النوم ؟. منذ لحظة فقط كانت تبدو امام الضيوف نشيطة مرحة .. حتى اذا اغلق الباب خلفهم بدأت تتثاءب وتتكاسل وقد فتر لحظها وتراخت اجفانها ..

ومنذ اكثر من اسبوع وهي تصرفه عنها كل ليلة بعذر من هذا القبيل، فيخادع نفسه ، ويغالطها ويرغمها على تصديقها ، ويتقبل العذر برحابة صدر ، كان يفعل ذلك كله وهو لايعي ، ليثبت لنفسه انها لاتكرهه ولا تضيق به ، وان كانت تبدو له غير مندفعة في حبه الاندفاع الذي يتمناه ويتوق اليه .

وكان منذ تزوجها ـ ولما يمض على زواجهما سوى شهور قليلة ـ قد آلى على نفسه ان يكون معها مثال الوداعة والتسامح والكرم وحسن الخلق . لانه يشك في حبها له ولذا فلن يثقل عليها ابدا ، ولن يفرض عليها نفسه فرضا .بل سيستميلها اليه وسيستجلبها على مهل ، حتى يفوز بحبها كما يرغب ويشتهي ، ولو ان الفارق بين عمريهما ثلاثون عاما . فهي لم تتخط العشرين ، وهو قد دلف الى الخمسين ، ولكنه رغم ذلك مازال يثق بنفسه الى حد بعيد ، فهو لم يتقن شيئا في حياته كأتقانه فن مغازلة النساء . وانه لمؤمن ان لديه من الاساليب التي اكتسبها من كثرة معاشرته لهن مايجعلها تتدله في حبه يوما ما ، كما سبق ان تدله كثيرات غيرها .. وما قيمة العمر وعدد السنين ؟ مادام يشعر انه مايزال شابا يتمتع بكل مايتمتع به الشباب من حيوية ونشاط . كما انه مايزال محتفظا بوسامة ونضارة تثير استغراب الكثيرين من اصدقائه ومعارفه لاسيما الذين يماثلونه في العمر .

ولكنه في هذه الليلة بالذات بدأ يشعر بخيبة مريرة لايستطيع ابدا ان ينكرها ، او يموهها ، وتجاه من ؟!.. تجاه المرأة التي انهى عندهامطافه واختارها بعد حين طويل ،وبعد تفكير وروية لتكون شريكة حياته مدى ماتبقى له من العيش . وكان قد أزمع فيما بينه وبين نفسه ان يخلص لها كما لم يخلص لغيرها ابدا .

فأي خيبة مريرة يمنى بها الان ؟؟

ولا يدري لم مر في خاطره في زحمة افكاره المضطربة وهو مستو على سريره في جلسته تلك في الظلام الدامس أسماء رجال من معارفه اخذ عليهم انقيادهم الاعمى لزوجاتهم وطغيان هؤلاء الزوجات عليهم حتى اصبحوا هزأة ، وكان هو قبل ان يتزوج اكثر الناس تندرا بهم ، وتنكيتا عليهم .

ويتنبه ذهنه فجأة الى نظرة كان تبادلها اثنان من ضيوفه هذه الليلة اثناء السهرة ، والى ضحكة اخفياها عندما غير هو رأيه في قضية تتعلق بالسياسة مسايرة لرأي سخيف ابدته زوجته ، كما تذكر ايضا كيف عدل مرة عن مشروع هام كان قد استعد لمباشرة العمل فيه في قرية نائيةعندما لم توافق زوجه عليه ، وما زالت به حتى اقنعته بالعدول عنه لانها لاترغب ابدا في سكنى القرى ولم يسعه الا النزول مستكينا عند رأيها ، ـ شأنه معها دائما ـ رغم تحمسه للمشروع ، وايمانه بنجاحه .

وثبت له انه اصبح دون وعي منه ، واحدا من هؤلاء الرجال المستكينين لزوجاتهم والذين يتندر بحوادثهم الناس ، ويجعلونهم هزأة المجالس .

ولاول مرة منذ تزوجها شعر نحوها بشيء من المقت والكره ، واخذ يتساءل لماذا تتأبى وتتكبر عليه هذه الصغيرة الحمقاء ؟. انها ليست ذات جمال نادر ، او ذكاء فارط كما تظن نفسها . وهو في الواقع لايهتم بها ، ولا يتألم من اجلها فما اكثر أمثالها في النساء. ولكنه يخشى ان تهان كرامته ، او تجرح كبرياؤه .

ماله يقف حيران مرتبكا امام هذه الصعلوكة التي هي زوجه ؟؟ . هو الذي كان الى حين قريب تياها على نساء يفقنها في كل شيء ، وكن يتهافتن على وده رغم كهولته وشبابهن ، ورغم ماعرف عن شدته في معاملتهن،لا شك انه اخطأ عندما افرط في تدليلها ، حتى اصبحت تستهتر به ، ولا تأبه له ابدا ، ويتذكر حدثا طريفا مر به وهو في عز شبابه فقد صفع مرة خليلة له غالية عليه امام الناس في حفل كبير لانها ابتسمت لرجل كان يكرهه ويغار منه . ثم ندم على مابدر منه من قسوة ، وعدم لياقة . فقرر ان يعود اليها اذا اصبح الصباح يستغفرها ويسترضيها . فاذا هي تسبقه الى ماعزم عليه وتسعى اليه في الصباح الباكر باكية تطلب عطفه ورضاه . كأنها هي المذنبة ، ويعود اليه صلفه وتيهه فلا يرضى عليها الا بعد جهد طويل . قال في نفسه : بمثل هذا يجب ان تعامل النساء .. ومالي حدت عن الطريق ؟؟

اليست هذه واحدة من النساء ؟

والتفت نحوها وهم ان يصيح بها يوقظها من نومها لينافشها حسابا عسيرا . ولكنه عاد فتراجع وكظم غيظه وارجأ ذلك الى الصباح . وقال في نفسه :

نعم كل هذه العجلة والايام بيننا ؟؟

وكانت العواصف مازالت تصطرع بشدة . فالرعد يزمجر ، والمطر يهطل . وتوقف سير تفكيره عندما بدت له من النافذة العريضة التي تواجه سريره تهاويم السماء الدكناء يرسم عليها البرق اشكالا غريبة رائعة . فراح يتأملها ساهيا لاهيا ، واذا ومضة برق هائلة يقتحم سناها النافذة ، ثم تتبعها ومضات متتالية ، فيلتمع في الغرفة المظلمة نور وهاج. وبنظرة خاطفة يلمح وجهها الذي مايزال متجها نحو سقف الغرفة ، وقد تقلصت قسماته بشكل يدل على انها تبكي فظل في مكانه سادرا يفكر، ثم تناهى الى سمعه عند هدأة الرعد صوت انفاسها مضطربة مبهورة تتخللها شهقات مكبوتة . فتأكد له بكاؤها . واخذت ثورته عليها تهدأ شيئا فشيئا ويحل محلها حنان واشفاق . فما كان ليخفى عليه ـ وهو العليم بطبائع النساء ـ انها تقاسي كثيرا فقلما تبكي المرأة في الخفاء الا اذا بلغ منها الالم كل مبلغ . فماذا يشقيها ويؤلمها ياترى ؟. لاشك انها تخفي عنه امرا هاما . وبحركة لاشعورية اضاء الكهرباء . فأخفت هي مسرعة وجهها بزندها ، وظلت ساكنة لاتأتي بحركة وصدرها يعلو ويهبط كأنها تعاني ضيقا في تنفسها . فقام عن سريره وجلس على حفة سريرها ، وسألها بلهجة تكلف فيها اللامبالاة :

ـ مالك تبكين ؟.

ـ أشعر بصداع أليم . قالت ذلك دون ان تتحرك او ترفع زندها عن وجهها .

ـ ها ها !. ان الصداع لايبكي ... ومالك تتحملينه ولدينا كثير من المسكنات ؟.

ـ اشعر ايضا بضيق يكاد يخنقني .

ـ اجلسي ، اجلسي . ان لي معك حديثا. تعالي نتفاهم بهدوء وصراحة. وأؤكد لك بان الصداع سيزول وبان الضيق سينجلي ..

ـ لاداعي لكل ماتقول . ارجوك ان تتركني الان ، فلا طاقة لي على الحديث معك !!

ـ لن اركك ابدا . كفاني مالقيت منك . قال ذلك بصوت عال ولهجة قاسية اكسبته السيطرة على الموقف حالا . ثم سحبها من يدها بشدة وقوة . فاستوت جالسة امامه وجها لوجه على حافة السرير . وقد بدا الرعب على وجهها فزادها روعة وجمالا . وراح يحدق اليها النظر فلم يرها ابدا اجمل منها في تلك اللحظة . كانت شاحبة اللون ، وقد اتسعت عيناها السوداوان المخضلتان بالدموع دهشة لما حدث ، ولما سيحدث . وانتشر شعرها الاسود الغزير على كتفيها بلا انتظام ، واحست ان غلالة النوم قد مالت عن عنقها ، وانحسرت عن كتفها البضة المستديرة فسحبها بعصبية واحكمتها حول عنقها كأنها تحاول ان تستر امامه مامكنها . ولاحظ هو ذلك فابتسم بمرارة . ومنذ تلك اللحظة شعر كان هوة كبيرة قد انشقت بينهما ففصلتهما عن بعضهما وتركت كل واحد في ناحية .

وبعد فترة صمت ثقيلة كان هو ينفرس في وجهها وهي تتحاشى النظر اليه فقال وقد استطاع ان يتغلب على اضطرابه فبدا هادئا :

ـ انني اشعر منذ تزوجتك انك لاتحبينني .. وانك لست سعيدة بالعيش معي . فلم رضيت الزواج بي اذن ؟؟.

ـ انا لم ... وبلعت الكلمات . واحدت دموعها تتساقط على خديها قطرات نييره . وهي مطرقة بصمت محزن ، وفمها مطبق .

ـ فهمت كل شيء .ولو ان فهمي جاء متأخرا !!.. لقد اجبرت على الزواج بمن لا تحبين. ولكن هذا كله على ما فيه من ظلم لايبعث على البكاء اردف : انه ابوك العجوز ومن ورائه زوجة ابيك الماكرة التي عرفت كيف تغتنمني ، وكيف تستغل ضعفك فتسيطر عليك بامسكينه وتجبرك على الزواج بمن لاتحبين . ولكن هذا كله على مافيه من ظلم لايبعث على البكاء المرير في مثل هذه الساعة من الليل الا اذا كان هناك شخص اخر ترغبين به وتتحرقين على فراقه .

ـ لا ، لا ، أحلف لك انه ..

ـ لاتحلفي ابدا . ولا تورطي نفسك في اثم ، ولا تحاولي النكران انه لايجديك نفعا . فلست انا ممن تخفى عنهم مثل هذه الامور . اصدقيني القول ، ونعي انني ساكون معك حتى نهاية الشوط .

وكأنها انست بعض الشيء بلهجته التي تنم عن الصدق فظلت صامتة مطرقة ترتجف من شدة الانفعال دون ان تحاول تبرير نفسها بكلمة واحدة كأنها تقره على ما يقول .

ـ لم لم يزوجوك منه اذن ؟... أفقير هو ؟...

فظلت مطرقة ودموعها تتساقط بغزارة .

فأخذ يتأملها مشفقا ثم قال :

ـ أو تبكين كثيرا من اجله ؟..

فتنهدت من عمق ثم زفرت زفرة حرة لم تستطع كتمانها . فقال :

ـ لعلك سمعت عنه مايسوءك هذه الليلة ؟..

فهزت رأسها ايجابا دون ان تنظر اليه . وتذكر هو حديثا دار بين ضيوفه قبل انصرافهم بقليل عن طلاب جامعيين القي القبض عليهم عندما قاموا بمظاهرة ضد المستعمرين واودعوا السجن ، ويقال انهم يعذبون فيه عذابا منكرا . وتذكر كيف تلقت هي الخبر بشهقة عالية اثارت استغرابه ولفتت نظر الجميع ثم بدا عليها وجوم وشرود ، فقال :

لعله احد هؤلاء الطلاب الذين يعذبون الان في السجن ؟...

وكأنه قد فرغ صبرها فوضعت كفيها على وجهها واجهشت بالبكاء بصوت عال .. فتيقن ان غريمه واحد منهم . ولاحت على فمه ابتسامة مريرة لانه استطاع ان يحزر ولان حدسه جاء في محله . ورغم هذه الحقيقة التي انجلت واضحة امامه ظل صامتا هادئا ، كأن الامر لايعنيه في قليل او كثير ، ثم راح يعجب من نفسه اشد العجب ، ويكاد ينكرها، كيف استطاع ان يطلع على هذا الواقع الفظيع بهدوء وبرود لايعهدهما ابدا في طبعه ، لاسيما في مثل هذه المواقف . أي تغير طرأ عليه فأحاله شخصا اخر كأنه غيره بالامس ؟...

ثم راح يتأملها وهي تبكي وتنشج فبدت له كطفلة صغيرة حيرى مرتبكة مغلوبة على امرها لاحول لها ولا طول ، واحس ان شعوره نحوها اخذ يتحول بسرعة الى حنان وعطف ، وود من صميمه لو يستطيع أن يهدهد حزنها فيأخذها في حضنه يمسح دموعها . ولكنه لم يجرؤ ابدا أن يمد اليها يدا كأن قوة خفية تصده عنها . وظل جالسا امامها حيران مدة من الزمن لايعلم اطالت ام قصرت ، كان يستمع الى نشيجها المرير فيشعر كأن قلبه يتقطع عليها حسرة ، ثم قام متثاقلا دون ان يفوه بكلمة واحدة ، وخرج من الغرفة وتركها على وضعها الذي هي فيه .

ـ التتمة على الصفحة ٧٩ ـ

فيرى حكمة الزمن اقوى من ان ينالها التغير فالموت حقيقة (١) ومن الحماقة ان يغفل المرء عن هذه الحقيقة ويفتر بالحياة (٢) ولكنه من خلال موته ، من خلال فنائه الشخصي ، يتطلع الى الابدية ويؤمن ان له مايبرر هذا التطلع ، على الرغم من الفساد الذي يتخلل حياته .

الحقيقة ان الابدية تتراءى لنا في الحياة نفسها ، ونستطيع ان نتبين ملامحها في المقدسات التي تهيمن على نفوس الجميع بالطمانينة واليقين. والاشياء المقدسة ليست من صنع الفرد ، بل هي امل يتوجه اليه الجميع كتشاطىء راسخ لانناله امواج الزمن وعواصف الفناء . وحين يلتفت الفرد الى هذا الشاطىء فانما يستجير من الاسى والنخيبة اللذين تحملهما اليه تجربة الحياة ، خلال اعوام وجوده . فهو فان ، ولكن الانسان باق بعده، تغمره المقدسات ابدا بضياء الخلود .

وتصدر هذه المقدسات في تجربة ابن دريد من ثلاثة ينابيع يشير اليها بوضوح في صور تأخذ منه الخشوع والضراعة ، وتطوف به كأسمى ماتحمله حياة الانسان من رجاء ..

الصورة الاولى : المؤمن

النياق الصلبة منطلقات في قلب الصحراء . سراع الخطى . كانهن اشباح القسي . غائرات العيون من الهزال . مقوسات الظهور . انوفهن راعفة من جذب اللجاب . حين يأتي الظلام يغبن في لجة الدجى السحيقة وفي النهار يطفون فيما رفعته الشمس من مشرق السراب . اخفافهن المتشققة من الحفا والمشقة تخضب بالدم الحصى الابيض . يحملن كل شاحب تقوس ظهره من طول السفر واحتمال التعب . مؤمن خاشع انهكه التقشف . ماض الى المكان المقدس (٣).

الصورة الثانية : البطل

الخيل تعدو . اكتافها هزيلة ناشزة واعرافها مشعثة في الرياح . تتسابق كالذئاب الكواسر ، رانية بعيونها المائلة الى بريق الرماح ، تحمل كل مقاتل ماض الى الكفاح ، كل محارب باسل ، قوي الفؤاد ، فاذف نفسه في غمرة القتال ، يغشى الحرب بحدي سيفه حين تكون الحرب مخيفة رهيبة ، لو مثل له الموت خصما لما صده الخوف عن الاقتحام ، ولو اراد القدر حمايته من الموت لرفض واقتحم بنفسه الفناء (٤).

الصورة الثالثة : الاجداد

الاجداد الشم ، اقدس مايقسم به الانسان ، الذين حملوا لواء المكارم واليهم ترجع المآثر ، ان فاخرهم احد قال الفخر نفسه : ليمتلىء فمك ترابا ، الذين اجروا ينابيع السخاء فغمروا العالم بالهبات ، الذين اذلوا من تجبر وقوموا من سولت له نفسه الغرور ، وجرعوا الذل من تحداهم واراد لهم الهوان (٥)

الايمان ، البطولة ، الامة .. تلك هي مقدسات الحياة الانسانية في تجربة ابن دريد ... الشواطىء الرحيبة التي تفتح للانسان آفاق الامل حين تخطئه العزيمة الصادقة امام المأساة .

دمشق — صدقي اسماعيل

(١) والناس للموت خلا يلسهم .. »
عجبت من مسيتقن ان الردى اذا اتاه لايداوى بالرقى

(٢) وهو من الغفلة في اهوية ..

(٣) البيت (٤٦) من المقصورة وما يليه .

(٤) البيت (٦٠) وما يليه

(٥) البيت (٦٧) وما يليه .

ومضة برق

ـ التتمة من الصفحة ٣٥ ـ

واخذت العاصفة تهدأ شيئا فشيئا ، فانقطع الرعد ، وانقشعت السحب عن سماء زرقاء فيها قمر يتهادى بين الغيوم ، وبدأ الصبح يتنفس عن نهار مشرق وضاح . واخذت هي تستعيد هدوءها وتستوعب ما حدث لها كأنها كانت في غيبوبة وصحت لتوها . فكبر عليها الامر وتملكها خوف شديد وراحت تسائل نفسها مرتاعة :

كيف استطاع هذا الماكر ان ينتزع منها هذا الاعتراف الخطير بسهولة ويسر ؟ لقد اغتنم فرصة يأسها وانهيار اعصابها فكان له ماأراد ..

الى م ينتهي امرها ياترى ؟؟..

وراحت تصغي الى صوت خطواته وهو يتنقل بين غرف البيت ، والى صوت حركة متوالية في غرفة الزينة المقابلة لغرفة النوم ، والى صرير ابواب الخزائن والادراج وهي تفتح وتغلق . ماذا يعمل يا ترى ؟ ليت لديها ولو قليلا من الشجاعة لمجابهته وسؤاله عما يفعل ، ثم سمعت صوت خطواته على الدرج ، ثم صرير باب البيت الخارجي وهو يغلق بشدة فتيقنت انه برح البيت . فخرجت من غرفتها واسرعت الى الشرفة واطلت منها فلمحته وهو يركب سيارته وينطلق بها . تساءلت الى اين ياترى ولما تشرق الشمس ؟؟. لاشك انه ذاهب الى ابيها ليخبره بكل ماحدث بينهما . فياهول ماينتظرها !!...

وعادت الى غرفتها مستسلمة الى اليأس والقنوط . رات في طريق عودتها على احدى المناضد رسالة تركها لها فتناولتها وفتحتها واخذت تقرؤ وتعيد ما تقرأ بدهشة واستغراب وتكاد لا تصدق ما تقرأ. احقا ياترى ما يقول ؟ انه ماض الان الى مشروعه في القرية النائية . وسيظل ما حدث بينهما هذه الليلة سرا مكتوما حتى عن ابيها وزوجه لانه يعرف تماما ماسيلحقها من ضيم اذا عرفا حقيقة امرها ، تلك الحقيقة التي يراها هو حقا مشروعا لها ، ومن الظلم ان تحرم منه . وسيبقيها في بيته وتحت حمايته ـ ان ارادت ـ ريثما تدبر امورها كما يحلو لها ، لانه لن تربطه بها بعد اليوم رابطة تجيز له التدخل في شؤونها الخاصة ، وسيعيد اليها حريتها ساعة ترغب ، وسيكون لها خير نصير . ويختم رسالته بجملة بدت لها اول الامر كلغز اذ يقول :

انا رجل كهل تستطيع امرأة مثلك ان تسعدني ولكنها لاتستطيع ابدا ان تشقيني ، ولذا فانا احمد الله الذي سخر لي ومضة برق عابرة اضاءت لي حقيقة امرك ، وكانت معوانا لي على كشف سرك الذي تخفينه عني وتشقين به ، واحمديه انت ايضا لانه اومضها في نفسي فانتهيت الى هذا القرار الذي ارتاح اليه ضميري ، ولن احيد عنه ابدا مهما قال الناس فيه .

بينما كانت هي تقرأ وتعيد ماتقرأ في دهشة واستغراب ، كان هو ماضيا في طريقه ، تنهب سيارته الارض نهبا وقد جلس خلف مقودها شامخ الرأس متعاليا راضي النفس ، يبدو لعينيه كل شيء جميلا ، ويشعر معتزا بان الغلبة كانت له ايضا على المرأة في هذه الليلة العاصفة بكل شيء كما لم تكن له ابدا ...

دمشق — الفه ادلبي

من جمعية الادباء العرب